تحولات الحداثة والظواهر السائلة في فلسفة زيجمونت باومان

The transformations of modernity and liquid phenomena in the philosophy of Zygmunt Baumann

د. عبد الغاني بوالسكك

جامعة باتنة1 الحاج لخضر

boussekekabdelghani@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2020/0704 تاريخ القبول: 2021/01/16

ملخص:

بعد أن خرجت أوروبا من عصر الظلمات إلى عصر الأنوار، واكتشاف الحداثة، أصبح الفكر الغربي لا يؤمن إلا بالعقل والعلم، ومما زاده إيمانا ذلك التطور الذي عرفته الحضارة الغربية بعد أن تخلصت من كل أشكال التفكير، وانطلقت في نهضة علمية تبتعها ثورة صناعية، آمنت بقدرة الإنسان على التفكير والإبداع وبالتالي السيطرة، وحاولت الحداثة أن تقود الإنسان إلى السعادة، لكن صدمة الحداثة دفع الإنسان المعاصر إلى أن يعيد التفكير في الحداثة كمشروع قادته إلى التقدم، لكن بالمقابل هناك تراجع في منظومة القيم الإنسانية، ولهذا فالهدف من البحث هو تبيان كيف شمل تأثير الحداثة والعولمة كل الميادين بما فيها الحياة الاجتماعية وظواهرها، فتغيرت الحياة، وتغيرت المفاهيم التي كان ينظر إليهاالإنسان من زاوية واحدةفأصبحت كل الظواهر والمفاهيم سائلة لا صلبة بلغة الفيلسوف البولندي زيجمونت باومان وهذا نتيجة تحولات الحداثة.

الكلمات المفتاحية: الحداثة، التحولات، الظواهر، الصلب، السائل.

Summary:

After Europe emerged from the era of darkness to the era of lights, and the discovery of modernity, Western thought became believed only in reason and science, and what was added to the belief in that development that Western civilization knew after it got rid of all forms of thinking, and launched into a scientific renaissance followed by an industrial revolution, believed in the ability The human being is on thinking and creativity, and therefore control, and modernity has attempted to lead a person to happiness, but the shock of modernity has pushed the modern man to rethink modernity as a project, led him to progress but in return there is a regression in the system of human values, and for this the aim of the research is to show how it included The influence of modernity wa The globalization of all fields, including social life and its phenomena, so life changed, and the concepts that people were looking at changed from one angle, so all phenomena and concepts became liquid, not solid, in the language of the Polish philosopher Zygmunt Baumann, and this is the result of the transformations of modernity, and from here we can wonder how modernity affected its transformations On modern man.

Keywords: Modernity, transformations, phenomena, steel, liquid.

مقدمة:

بعد أن خرجت أوروبا من عصر الظلمات إلى عصر الأنوار بدأ الفكر الأوروبي يعرف نهضة فكرية وعلمية أدت إلى تطور الحضارة الغربية، ومما زادها تطورا نتائج الثورة الصناعية، حيث شهدت أوروبا تراجعا كبيرا للفكر الخرافي والأسطوري واستقلالية عن الكنيسة، منذ ثورة غاليلي غاليلي(Galileo Galilei) (1564 - 1642)وكوبرنيكوس (NicolausCopernicus) (1473 –1543) وهذا قادها إلى التفكير في التحرر من الفكر الظلامي والرجعي، والذي سادها طيلة عصور وسطى مظلمة وذلك بإعطاء أولوية للفكر الحر والفكر العلمي، والذي بفضله خرجت أوروبا من عصر الظلمات، وأعلن دخولها في العصور الحديثة، ومن هنا بدأت في التفكير في التحكم في الطبيعة وتسخيرها لصالح الإنسان فكانت الحداثة بكل مظاهرها، ودخل الإنسان الغربي في مرحلة الحداثة والتحديث، فأبدع كل الوسائل التي تمكنه من الحياة برفاهية، وشهدنا في هذه الفترة تراجعا للقيم والدين والأخلاق، ولم يعد يؤمن إنسان الحداثة إلا بمغرياتها، ونسي ذاته، بل وحتى جانبه الروحي، وظهرت أفكار علمانية تنادي بضرورة فصل الدين عن الدنيا بصورة نهائية، لأن العلم أعلن انتصاره، ومما زاد هذا الطرح قوة محاولة الغرب عولمة نموذجه الحضاري في العولمة على كل الدول والأمم والحضارات، على اعتبار أن الحداثة لا مفر منها والعولمة تفرض ذاتها يوما بعد يوم وبقوة، فظهر الإنسان العالمي والقيم العالمية، وأعلن نهاية التاريخ وسيطرة الرأسمالية والليبرالية، وذابت الفوارق بين الشعوب عن طريق وسائل الاتصال والإعلام، وظهرت الثقافة الغربية كنموذج تحاول أن تعمم على باقي الأمم، على اعتبارها النموذج الحداثي الذي أبدع الحداثة، ومن ثمة فرض الحضارة الغربية بكل مقوماتها على باقي الحضارات، وجعل العالم قرية واحدة، إلا أن ذلك أدى إلى ما عرف بصدام الحضارات والثقافات، ومن نتائج العولمة والحداثة السباق نحو التسلح وظهور المجتمع الاستهلاكي، مما أثر على الإنسان والبيئة، وظهر من ينادي بما بعد الحداثة، لأن الحداثة خلقت لدى الإنسان نوع من القلق والخوف واللاأمن والمراقبة السائلة، وهذا بدوره أدى إلى تغيير كثير من العلاقات والمفاهيم بين المجتمعات والشعوب، ومن هذه المفاهيم مفهوم الثقافة والحداثة والعنف والإنسان والقيم والحب والأخلاق والحياة، وحتى الشر حيث لا حظ الفيلسوف البولندي **زيجمونت باومان(*)** أن هذه المفاهيم التي تدخل في أساس الفهم الإنساني لا بد أن تتغير وفقا لمعطيات الحداثة، ولاحظ أن مفهومها الكلاسيكي ثابت لا يتغير وبما أنه انتقلنا من زمن التحديث إلى الحداثة لا بد لهذه المفاهيم أن تتغير، ووضع ما أسماه بمصطلح السيولةولهذا كان الهدف من البحث هو تبيان كيف شمل تأثير الحداثة والعولمة كل الميادين بما فيها الحياة الاجتماعية وظواهرها فتغيرت الحياة، وتغيرت

المفاهيم التي كان ينظر إليها الإنسان من زاوية واحدة، فأصبحت كل الظواهر والمفاهيم سائلة لا صلبة بلغة الفيلسوف البولندي زيجمونت باومان وهذا نتيجة تحولات الحداثة، من هنا قدم باومان في كتبه نقدا للحداثة الغربية، فما هي التحولات التي فرضتها الحداثة؟ وكيف انتقلنا بهذه المفاهيم من الصلابة إلى السيولة وماذا ننتظر من زمن ما بعد الحداثة؟

وعليه اعتمدت المنهج التحليلي النقدي لتحليل ونقد أفكار باومان في تحولات الحداثة التي أدت إلى الانتقال من الصلابة إلى السيولة في المفاهيم والعلاقات والقيم، ولهذا كان الهدف تبيان ما أنتجته الحداثة من متغيرات وتأثيرات على الإنسان وذاته وأفكاره وقيمه وأخلاقه وعلاقاته الاجتماعية، وحتى علاقته مع البيئة، ونقد كل منتجاتها، كما طرحت هذه الأفكار ضرورة الانتقال من زمن الحداثة إلى زمن ما بعد الحداثة، لأن منتجات الحداثة قد بينت تصاعد ظاهرة الخوف بمعناه السائل، والذي أدى إلى الشعور كذلك باللاأمن مما يعني أن الحداثة أخلفت بوعودها للإنسان الذي كان يطمح إلى التقدم والرفاهية والعالمية والكونية والسعادة.

تحولات الحداثة: لقد عرف الغرب الحداثة منذ أن قطع الصلة بكل ما هو غير عقلاني غير علمي، لينتقل إلى عصر الأنوار الذي مجد العقل والعلم، ولقد قدمت الحداثة وعودا كبرى للإنسان الحديث والمعاصر في الرقي والتقدم والتطور فلم يعد يؤمن إلا بالعقل والعلم، لكن بالمقابل خلقت لديه شعورا بالقلق والخوف بخصوص القيم والذات والمجتمع والحياة، بل وإنسانيته الضائعة، ولذا نجد الكثير من الفلاسفة الذين دافعوا عن المشروع الحداثي يتراجعون لما لاحظوه من تغول الحداثة التي تريد أن تلتهم الإنسان في كل أبعاده، ففكروا في مشاريع تنقذ الإنسان من نزعته الاستهلاكية المدمرة التي زرعتها الليبرالية الجديدة، وتعيد إليه القيم المفقودة وتنتشله من الاستلاب والاغتراب، ومن هؤلاء زيجمونت باومان الذي أدرك بأن الحداثة كمشروع قد عرف تحولات وتغيرات وتطورات، في عالم مقدر لنا أن نعيش فيه، لقد أصبح الإنسان غريب عن وطنه وعن ذاته غريب عن مجتمعه، فلا بد من العودة إلى الذات وإلى الإنسان في كل أبعاده خاصة القيمية والأخلاقية في ظل عولمة حكمت بتصدع الدين وإلغاء كل الفوارق بين الأمم والثقافات والحضارات، في محاولة لفرض نمط واحد متجاهلة التعدد والتنوع والاختلاف بين الشعوب والأمم، إننا بقدر ما نعيش عصر النهايات بقدر ما نشهد ولادة تاريخ وإنسان ومجتمع جديد، وذلك بجعل الحداثة أكثر ديمقراطية تؤمن بالعدالة والحرية للإنسان وللإنسانية جمعاء، مبتعدة عن القلق والخوف واللاأمن الذي يشعر بهما الإنسان الحداثي الذي يطمح إلى زمن ما بعد الحداثة، التي يمكن أن تعيد له قيمه وإنسانيته، لذا فقد وجه باومان

النقد لكل معطيات الحداثة ليكتشف أن الحداثة قد غيرت المفاهيم والمقولات الصلبة لتصبح سائلة، فظهر الخوف السائل والحب السائل والثقافة السائلة وغيرها، تماشيا مع معطيات الحداثة السائلة هي بدورها، إنها الحياة السائلة في زمن الحداثة السائلة، التي يقول عنها باومان "فقد تحولت فكرة "التقدم" إلى واقع مرير وجبرية متطرف بعدما كانت أبرز تجليات التفاؤل والأمل الكبير بتحقيق السعادة الدائمة للجميع، فصارت ترمز إلى تهديد دائم وحتمي لا يبشر بالراحة ولا السكينة، بل ينذر بالشدة والمشقة الدائمتين ويمنع أية لحظة للراحة.. فلم تعد فكرة التقدم توحي بالآمال الكبرى والأحلام الجميلة، بل صارت تشير إلى معاناة من الأرق وكوابيس الخوف من التخلف عن ركب السائرين"[1]، إن السؤال الذي أرق كثيرا زيجمونت باومان رغم إيمانه بأنه لا بد أن نعيش في هذا الواقع الذي فرضته العولمة والحداثة بكل معطياته هو فكيف تبدو الحياة السائلة في زمن الحداثة؟ وقبل ذلك ما هو الوضع الذي آلت اليه الإنسانية بعد انغماسها في زمن الحداثة؟

ثانيا: في الظواهر السائلة

1- في الوضع الإنساني: يرى زيجمونت باومان أن الوضع الإنساني اليوم في زمن الحداثة والعولمة وضع جديد، لقد تغير كثيرا، بل هو في تغير متسارع جدا، وعلى جميع المستويات، فالحداثة والعولمة تريدان اصلاح ما افسدته العصور السابقة، نريد ان ترتفع بالوضع الإنساني الى مستوى التقدم والتطور،وتأكيد كل المعطيات التي انطلقتا منهما، لكن بالمقابل فقد اوجدتا تحديات بل وازمات للإنسان والإنسانية، يقول في ذلك باومان واصفا هذا الوضع"غير أن ذلك كله لا يعني أن الوضع الإنساني المتغير قد أفرغ من الصعوبات التي أفسدت صيغته السابقة، يعني فقط أن الصعوبات تغيرت وإنها تجرب بطريقة مختلفة..وينبغي للتعبير الجديد أن يكون أولا تأملا في الطرق التي يمكن بواسطتها تحسين الوضع الإنساني الحالي"[2].

لقد انبنت العولمة على تحولات الحداثة، ولقد اكتسحت العولمة العالم وحياة الناس في كل مكان، لم نعد نقوى عن مقاومة أو رفض العولمة ومعطياتها، انها الظاهرة العالمية الجديدة، لقد اذابت العولمة كل الفوارق بين الأمم والشعوب وهذا ما سيؤدي إلى زيادة الخوف واللاأمن كما يرى باومان"لا شك أن العولمة أصبحت الآن حتمية وفي مسار يستحيل عكسه، لقد تم الوصول إلى نقطة اللاعودة، وتم تجاوزها لا عودة الآن، إن علاقاتنا فيما بيننا واعتمادنا على بعض صار عالميا، كل ما يحدث في مكان يؤثر على حياة الناس وفرصهم في العيش في مكان آخر، حسب الخطوات التي تتخذ في مكان ما يجب أن يأخذ بعين الاعتبار ردود الفعل في كل مكان آخر، لا حدود سيادية مهما كثرت أو كثر سكانها وإمكاناتها تستطيع بمفردها أن تحمي ظروفها المعيشية أو أمن سكانها، اعتماد

بعضنا على بعض يحدث على امتداد الكرة الأرضية"[3]، ومن هنا يتساءل باومان عن هذا الوضع الإنساني الذي خلقته الحداثة وتحولاتها، وفرضته العولمة بمعطياتها، واصفا إياه بالوضع الإنساني الكارثي، وهذا ما دفعه إلى التفكير في منتجات الحداثة، ونقد مشاريعها التدميرية للإنسان وحياته بل ويدعو الى ضرورة التحول من الحداثة إلى ما بعدها، ليؤكد أن "السؤال ليس كيف يمكن إعادة نهر التاريخ، ولكن كيف يمكن الكفاح ضد تلوثه بالبؤس الإنساني وكيف يمكن توجيه تدفقه لكي يحقق توزيعا أكثر تساويا لما يحمله من فوائد"[4]، إنه وضع ازداد فيه الشعور بالخوف واللاأمن، كما عرف اختلالات في الهوية والحياة بما تحمله من مظاهر، فعرفت الحياة تحولات، وهو ما يسميه باومان بالحياة السائلة، وعاد فيها العنف إلى الظهور بأساليب جديدة، فاصبح سائلا متغيرا متعددا، وهذا نتيجة لتغير معطيات الحضارة والثقافة التي أصبحت هي الأخرى سائلة ولم تعد صلبة بلغة باومان، ومن هنا يؤكد باومان على أن تحولات الحداثة هي من فرض على هذه المظاهر والمفاهيم ان تتغير فكيف ساهمت الحداثة في ذلك وما المقصود بالحداثة السائلة؟

2-في الحداثة السائلة: إذا كانت الحداثة هي تلك المرحة التي شهدها الفكر الأوروبي بعد أن تخلص من عصور وسطى مظلمة، فإنها المرحلة التي حدثت فيها القطيعة الفعلية بين الكهنوت والخرافات والأساطير، من جهة، والعقل والعلم من جهة أخرى، ليعرف العقل قفزة نوعية نحو الحضارة والتقدم والرقي، ولقد انطلقت الحداثة بكل مظاهرها نحو الرقي بالإنسان ومنحه السيطرة والقوة، ونقلته من عصر إلى عصر، ورغم أنها ظاهرة غربية،إلا أن المجتمعات اليوم كلها اندمجت في الحداثة والعولمة، يقول باومان"أما نحن الغرب فسنظل بالطبع أهل حداثة كما كنا من قبل، لكن ما أكثر من يقولون "نحن أهل حداثة" هذه الأيام، ولا نبالغ إذا قلنا إن جميع الناس الآن أو أغلبيتهم في كل بقعة من بقاع الأرض أوفي أغلبها قد صاروا أهل حداثة"[5].

لقد صارت الحداثة ظاهرة العصر، لا يمكن أن نفكر خارجها، فهي تمتاز بقدرتها على التمظهر وفرضها للتغيير الدائم في حياة الفرد والمجتمع والعالم، إنها من فرض الحياة السائلة التي لا تعرف التوقف فهي كسيل يجري لا ينضب، لم تعد المجتمعات في زمن الحداثة تفكر في اللحظة الزمنية الراهنة، لأنها تتجاوزها بمجرد التفكير فيها، هناك تحولات متسارعة لا يمكن توقفها، وربما هذا ما دفع باومان لأن يؤكد أن زمن الحداثة ليس زمن ثابت، فبمجرد ما انخرط الانسان المعاصر في زمن الحداثة، حتى وجد نفسه يفكر في زمن ما بعد الحداثة،إن الحداثة تفلت منا بمجرد ما إن أردنا أن نقبض عليها، وهنا يقول باومان عن هذه الفكرة"ظلت الحداثة تغير شكلها مثلما كان يفعل بروتيوس إله البحر هربا من صائديه.. فما كان في الماضي نسميه (خطأ) "ما بعد الحداثة" وما قررت أن أسميه بوضوح" الحداثة

السائلة"إنما هو الإيمان المتنامي بأن التغيير هو الثبات الوحيد، وأن اللايقين هو اليقين الوحيد، إذا كانت الحداثة في المائة عام الماضية تعني محاولة الوصول إلى حالة نهائية من الكمال، أما الآن فإن الحداثة تعني عملية تحسين وتقدم لا حد لها من دون وجود حالة نهائية في الأفق ومن دون رغبة في وجود مثل هذه الحالة"[6]، ومن بين القضايا التي شغلت الفكر الحداثي هو محاولة السير في خط مستقيم، بحيث نستطيع أن نستشرف المستقبل وأن نضع اللبنات الأساسية لبنائه، لكن ما لم يتوقعه زمن الحداثة أن تحولاتها إلى ما بعد الحداثة جعل الانسان لا يضمن أن تسير الأمور في هذا الخط، لأنه كما يرى باومان خرجنا من زمن الحداثة الصلبة، إلى زمن ما بعد الحداثة السائلة وعليه "إذا كان جوهر الحداثة في مرحلة الصلابة يتمثل في التحكم في المستقبل وتثبيته، فان شغلها الشاغل في مرحلة السيولة إنما يتمثل في ضمان استقلال المستقبل وحريته ودرء التهديد الذي يمثله أي استغلال مبكر للفرص الخفية المجهولة التي ربما يأتي بها المستقبل، أو التي لا بد من أن يأتي بها"[7]، لأن زمن الحداثة الفائقة يمتاز بالإذابة والصهر والسيولة لا الصلابة، الذي يمنح الحرية أكثر لتمظهرات ما بعد الحداثة، حيث يصف لنا باومان هذا الوضع بقوله:"صار كثيرون من المفكرين يتحدثون عن نهاية التاريخ، وما بعد الحداثة، والحداثة الأخرى، والحداثة الفائقة، وما إلى ذلك من المقولات تعبيرا عن حدسهم بوقوع تغيير جذري في منظومة العيش المشترك، وفي الظروف الاجتماعية التي تدار فيها سياسة الحياة هذه الأيام"[8]، فالحداثة السائلة تجاوزت ما سمي بالحداثة الصلبة، لأنها تجاوزت النمطية، واستطاعت حلحلت وتفكيك كل مظاهر الحياة، حيث لم يعد المقدس مقدس، ولم يعد مكان للسحر، واعطت السلطة للعقل والعلم والأمة لقد شهدنا تحولات كبرى في زمن الحداثة الفائقة، لقد انتقل الانسان فعلا إلى زمن الحداثة واصبح حديثا اكثر من أي وقت مضى "وصدر فقدان المكانة عن عمليات شكلت تحول الحداثة من مرحلة الصلابة إلى مرحلة السيولة واستخدم هنا مصطلح "الحداثة السائلة" (liquidmodernity) للإشارة إلى الشكل الراهن للوضع الحديث الذي يصفه مؤلفون آخرون بأنه ما بعد الحداثة (postmodernity) أوالحداثة المتأخرة (lotemodernity) أوالحداثة الثانية (secondmodernity) أوالحداثة العليا (hypermodernity)"[9]، فالحداثة السائلة هي ثورة ضد كل ما هو نمطي، وكل نموذج تراتبي في الحياة، انها تفكيك لكل ما هو صلب وثابت، وعليه فحق لا تحدث لنا صدمة الحداثة بتحولاتها، علينا أن نقضي على النمطية في الحياة ونجعلها اكثر سيولة ومرونة وانصهار، وعليه يمكن القول"إن ما يحول الحداثة من الحالة الصلبة إلى الحالة السائلة ويبرر اختيارنا لهذه الصفة هو التحديث الوسواسي القهري المكثف الذي أفضى إلى عدم قدرة أي من أشكال الحياة الاجتماعية المتتالية بأن تحتفظ بشكلها زمنا طويلا تماما مثل المواد السائلة (فإذابة كل ما هو صلب) كانت السمة الجوهرية المميزة للشكل الحديث للحياة من

البداية، ولكن اليوم على العكس من الأمس لا يجعل محل الأشكال المذابة أشكال صلبة أخرى، تلك الأشكال التي كانت تعتبر معدلة بمعنى أنها أكثر صلابة ودواما من الأشكال السابقة عليها، بل وأكثر مقامة للذوبان، ومحل الأشكال الذائبة غير الدائمة تحل أشكال أخرى ليست أقل قابلية للذوبان، إن لم تكن أكثر قابلية للذوبان ومن ثم فهي غير دائمة بالقدر نفسه"[10]. ومنه فقد جاءت الحداثة كما قلنا سابقا لتجعل حياة الانسان بعيدة على النمطية والنمذجة، لتخرجه من الروتين والثبات نحو الحرية التغير والسيولة، وهو ما عبر عنه باومان بقوله: "فالحداثة السائلة هي ساحة معركة دائمة حق الموت حرب ضد كل النماذج"[11]، حيث ارادت أن تجعل الانسان يعيش في السعادة والرفاهية وبالتالي تتغير حياته من حياة صلبة إلى سائلة فما المقصود بالحياة السائلة وما المظاهر التي تغيرت بتغيرها؟

3.في الحياة السائلة: لقد تغير مفهوم الحياة، حيث غيرت معطيات الحداثة والعولمة كثير من المقولات والمفاهيم، فلم تعد الحياة هي العيش في أمان، ولم تعد هي البحث عن السعادة والرفاهية، فبالرغم من الوعود الكبيرة التي قدمتها الحداثة في مشروعها، من أنها وعدت الإنسان بحياة أكثر رفاهية ومتعة وتطور وتقدم، إلا أنها خلقت بالمقابل حياة مليئة بالخوف والقلق والاضطراب والانتحار والموت والعنف والقتل والإرهاب وأفول القيم والأخلاق، إنها إحدى أكبر نتائج العولمة والحداثة، وما وعدوا به من تقدم، فهي كما وصفها باومان "كلما تقدم المجتمع الحديث السائل، تراجع بها الشهداء والأبطال الذين يجدون مأواهم الأخير في هذه الأيام بين الشعوب التي مازالت تحارب ما يبدو لكثير من أهل الكوكب (وربما لأغلبيتهم) حربا ضد ظروف يشق تحملها، بل وحربا خاسرة بالفعل، إنها حرب ضد القوى العسكرية والمالية العولمية الرهيبة التي تحاصر الأراضي البكر الباقية حتى تغرس نموذج حياتها الجديدة أينما ذهبت، وهي حياة تعني لمن يلقونها نهاية الحياة كما يعرفونها، بل وربما نهاية الحياة في حد ذاتها"[12]، إنها لنهاية مؤلمة يفتقد فيها الإنسان لكل قيمه، بل ولحريته ولسعادته التي طالما حلم بها في مجتمع ديمقراطي تقوده نخبة تمتلك ثقافة راقية، يزول فيه العنف والدمار، وتنتهي فيه أزمات الإنسان المعاصر التي زادت بفعل فقدان الحرية والخوف واللاأمن، بل والخضوع لسيطرة الثقافة الاستهلاكية التي جعلت الإنسان ذو بعد واحد كما يقول **هربرت ماركوز** (Herbert Marcuse) (1898 -1979)إننا إذا أردنا أن نبني مجتمعا حديثا فعلينا أن نضع في مشروعنا هذه الأبعاد بالموازاة مع معطيات الحداثة الصلبة، لننتقل إلى حداثة سائلة، تؤمن بالسعادة والتسامح بين الناس، وكما يصفها باومان بقوله: "الحياة السائلة نحياها عادة في مجتمع حديث سائل، وهو مجتمع تتغير فيه الظروف التي يعيشها أعضاؤه بسرعة لا تسمح باستقرار الأفعال في عادات وأعمال...كما أن الحياة السائلة تماما مثل المجتمع الحديث السائل، لا يمكن أن تحتفظ بشكلها ولا تظل على حالها وقتا طويلا... إن الحياة

السائلة حياة محفوفة بالمخاطر يحياها المرء في حالة من اللايقين الدائم، وأشد هاجس يساور المرء في تلك الحياة هو الخوف من أن تأخذه على حين غرة، ومن الفشل في اللحاق بالمستجدات المتسارعة"[13]، ونتيجة لمغريات الحياة السائلة في زمن الحداثة فإن باومان يؤكد أنه بقدر السعي وراء هذه الحياة، بقدر ما تزداد المخاطر ويزيد الخوف من المستقبل ومن زوال السعادة، إننا أمام حياة حداثية تمتاز بالسرعة والتسارع، تضعنا مباشرة أمام مجتمع استهلاكي لا يتوقف، وبالتالي لا يمكن أن نعيش هذه الحياة بعيدا عن الخوف، وهو ما يؤكده باومان بقوله: "فليت حياتنا خالية من الخوف، والزمن الحديث السائل الذي تعاش فيه حياتنا ليس خاليا من الأخطار والتهديدات، بل إن الحياة بأسرها في هذا الزمن هي صراع طويل خاسر على الأرجح ضد إمكانية التأثير السلبي المحتمل للمخاوف...باتت الحياة بحثا مستمرا واختبارا دائما للسبل والأدوات التي تعيننا على منع وقوع الأخطار"[14]، ولقد منحت الحداثة السائلة للإنسان الحرية أكثر من أي وقت مضى، ولكن هذه الحرية سلاح ذو حدين، فقد ارتقت بالفرد والمجتمع نحو التحرر والتخلص من كثير من السيطرة والقوة وألهمته كيف يتحرر من الطبيعة ومن غرائزه، وحق من كثير من الأنظمة التسلطية، وبعض المظاهر الاجتماعية، وبالمقابل أفقدت الإنسان الأمن والسعادة والراحة النفسية فأصبح أكثر قلقا واضطرابا وخوفا، بل ومعاناة، ولهذا يرى باومان "أن الشيء الوحيد المهم في اعتبارنا حر، والذي يجعلك تحافظ على أن تكون كذلك هو وجود "المجتمع الحر" أي مجتمع الأفراد الأحرار الذي لا يحرم عليك ولا عنك أن تفعل وفق رغباتك، ولا يعرضك للعقاب على مثل تلك الأفعال"[15].

4في الحرية: لا يمكن تصور الإنسان الحر إلا في مجتمع حر، إنها القاعدة التي يؤمن بها الفلاسفة وعلماء الاجتماع والحرية في مجتمع الحداثة السائلة كما يرى باومان لا يقصد بها أن تفعل ما تشاء، ولا تعني غياب كل الضوابط الاجتماعية والقيود الأخلاقية، بل على العكس من ذلك هي أن تفعل وأن تعيش وفق هذه الضوابط والقيود هو معنى الحرية الحقيقي، فبقدر ما يتحمل الناس مسؤولية أفعالهم، بقدر ما يبرهنون على حريتهم وهو ما يؤكده باومان في قوله:"ويكون الناس أحرارا بشكل أساسي باعتبارهم يتحملون مسؤولية نتائج أفعالهم، وفهم الحرية قد يستمد من بعض العقائد أو المعتقدات الأخلاقية المؤسسة دينيا، أو المبينة قانونا أو بشكل فلسفي، كثيرا ما يكون الناس أحرارا بصورة أساسية، باعتبار حياتهم يمكن أن تكون لا شيء إلا مشروعهم الخاص، ولا يتصورونها باعتبارها سلسلة تنازلات أو خضوع للضروريات"[16]. إنه المفهوم الجديد للحرية السائلة في المجتمع الجديد، الذي فرضته الحداثة السائلة بكل معطياتها وعليه:"إن تاريخ الحرية يقوم على سلسلة إعادة الصياغة وإعادة التعريف...

فتاريخ الحرية يقيم جسرا يمتد فوق حسب المدى العريض للتشكيلات الاجتماعية بتعارضاتها الدقيقة وصراعات القوة"[17]، فعلا لقد استطاع الإنسان الحداثي أن يكتسب حريته،خاصة الحرية الفردية والاقتصادية وهي الحرية التي بنيت عليها الأنظمة السياسية والاقتصادية، وعرف إنسان الحداثة بعض الرفاهية والسعادة التي بحث عنها، ولكن باومان لاحظ إن الحرية في هذا المجتمع المعاصر والليبرالي تحديدا تفرض أن يكون البعض أحرار على حساب البعض الآخر وبالتالي فهي حرية مزيفة، وهنا تكمن المفارقة في أنه "يوجد غموض عرضي في الحرية في شكلها الحديث المقترن بالرأسمالية، تتطلب فاعليه الحرية أن يبقى بعض الناس الآخرين غير أحرار، فأن تكون حرا يعني أن يكون مسموحا بإبقاء الآخرين غير أحرار، وأن تكون قادرا على ذلك، وهكذا فالحرية في حداثتها شكل محدود اقتصاديا لا يختلف عن ما قبل تطبيقاتها الحديثة فيما يتعلق بمضمون علاقتها الاجتماعية، أنها تكون كما كانت من قبل انتقائية، وربما هي تتحقق بشكل صحيح عند جزء من المجتمع فقط، إنها تشكل أحد القطبين في العلاقة التي قاعدتها نظامها المعياري والإجبار والتقييد قطبها الآخر"[18] وهذا ما تعنيه الحرية الاقتصادية، أما الحرية الاجتماعية أو الحرية بمفهومها الأخلاقي، فهي التي تفترض أن الإنسان باستطاعته أن يختار الخير والشر، وبالتالي يستطيع أن يختار، ولذا فهو كائن مسؤول عن اختياراته، فلا يجب أن نقوم بالفعل ثم نتهم الإله بأنه من فرض علينا القيام بالفعل، فالله بريء والناس هم المسؤولون عن اختيارهم الحر، وهذا المفهوم الأخلاقي للحرية هو الذي يرتبط بالإنسان وإرادته ومصيره، إذ يتوفر عليه اختياره بين الخير والشر، وتحمل المسؤولية، يقول باومان في ذلك "وفقا لبيلاجوس"جعل الله الناس أحرارا" ولكونه جعلهم هكذا فإن الناس تستطيع الاختيار بين الخير والشر ووفقا لإرادتهم، إنه أيقظهم ليعيشوا من أجل خلاصهم أو هلاكهم، ولكونهم أصبحوا أحرارا ووهبهم الإرادة الحرة، فإنهم يتحملون تماما مسؤولية أفعالهم، حقا إن الله بقدرته الشاملة وهب الناس هبة لا ترد هي هبة الإرادة الحرة، وبذلك وضع الله مصير الناس في أيديهم، وقرر رفض كل قوة فوق سلوكهم وبالتفويض أو بالوكالة"[19]، وعليه لا يمكن تصور إنسان حر إلا في مجتمع حر، هذه الحرية التي يتكلم عنها باومان هي الحرية الإنسانية التي يستطيع من خلالها الإنسان أن يكون مسؤولا وقادرا على الاختيار، ولهذا نجده يقدم نقدا للحرية في المجتمع الليبرالي وحق الاشتراكي، ولقد أدت هذه الحرية الحداثية السائلة إلى مجتمع مفتوح كما أثرت في الإنسان وسلوكياته، وفي المجتمع وقيمه وظواهره، فبعد الغزو العولمي وتحولات الحداثة ظهر الإنسان الحداثي الجديد، وتغيرت سلوكياته بتغير أفكاره التي فرضتها عليه العولمة والحداثة، فظهر العنف السائل والثقافة السائلة، وأصبح إنسان الحداثة أكثر خوفا من ذاته ومجتمعه ومستقبله، فكيف ظهر العنف السائل؟

5-في العنف السائل: يعد العنف من الظواهر الاجتماعية التي ترتبط بالإنسان وحياته، ولقد ارتبط باستعمال القوة للحصول على شيء، ما كما يقول علماء الاجتماع والفلاسفة، كما أنه ارتبط بالدولة والسلطة والسياسة، وعليه يفرق العلماء والفلاسفة بين العنف الغريزي الذي نجده عن الحيوانات وحق عند الانسان، وبين العنف بمعناه الاجتماعي والسياسي، ومن الفلاسفة الذين اهتموا بالعنف نجد الفيلسوف الألماني ماكس فيبر (Maximilian Carl Emil Weber) (1864-1920) وحنة أرندت (Hannah Arendt) (1906-1975) وباعتبار الانسان كائن اجتماعي بطبعه، يميل الى غريزة حب السيطرة والتملك، فإنه يمارس العنف لتحقيق ذلك، لكن نظرا لتطور المجتمعات وظهور الدولة والقانون، كما تعتقد نظرية العقد الاجتماعي فقد احتكرت الدولة هذا العنف لصالحها من أجل فرض النظام، ومن أجل تحقيق العدالة بين الناس، وإلا فإنه سيتحول إلى عنف مضاد، وهذا ربما ما اسماه باومان بالعنف الصلب، وهو ليس خطر على الفرد والمجتمع فقط، بل حق على وجود الدولة ذاتها "وإذا فقدت الدولة احتكارها للقهر الذي اعتبره ماكس فيبر ونوربير إلياس كلاهما أبرز سمة والسمة الجوهرية للعقلانية الحديثة أو النظام المتحضر، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أن المحصلة النهائية للعنف، بما في ذلك العنف الذي ربما يؤدي إلى الإبادة ستنخفض، فالعنف ربما يتحرر من القيود والضوابط فيزل من مستوى الدولة إلى مستوى الجماعات"[20] وقد يكون العنف بين الأفراد والجماعات وبين الدول، إنه ضرورة لتطور وتغير التاريخ، كما يرى جورج سوريل (Georges Eugène Sorel) (1847-1922) وحنة أرندتوفريدريك هيجل(Georg Wilhelm Friedrich Hegel) (1770-1831) وكثير من المفكرين، حيث يميز كثير منهم بين العنف المشروع وغير المشروع، العنف البناء والعنف الهدام، العنف المادي والرمزي، كما يرى هربرت ماركوز وبيار بورديو، وهو ما يستند إليه باومان في الحديث عن العنف السائل في المجتمعات، كما يستشهد بالمفكر رينيه جيرار(René Girard)(1923-2015) عندما يقول "طرح رينيه جيرار نظرية شاملة لدور العنف في ميلاد الجماعة البشرية وبقائها فثمة رغبة عنيفة هائجة على الدوام تحت السطح الهادئ الذي يسوده التعاون السلمي الودود، وهذه الرغبة تحتاج إلى تنفيس خارج حدود الجماعة حتى تستأصل جزيرة الأمان الجماعي، تلك الجزيرة التي يحظر فيها العنف، ومن تم فإن العنف الذي يطالب بدليل على صدق الوحدة الجماعية، يعاد تدويره سلاحا للدفاع الجماعي، وفي هذا الشكل الذي أعيد تدويره يصير العنف شرطا لا غنى عنه...إنه العنف الداخلي أي مابين الجماعة الواحدة من خلافات"[21]، وهو العنف الذي أصبحت تمارسه أكثر الجماعات الاثنية لتوكيد هويتها وانتمائها، وربما هو عنف خطير لأن امتداداته ستكون مدمرة للفرد والجماعة والدولة،وهذا العنف وصفه باومان بالخطير، لأنه يستمد وجوده وبقائه وقوته من ذاته وهنا يعود ليستشهد برينيه جيرار ليقول: "اقتربت نظرية جيرار كثيرا من إدراك العنف المنتشر والمستفحل في جهات الجماعات التي

تشهد تنافسا ونزاعا حادين، ولا سيما الجماعات التي مازالت هوياتها محل نزاع وخلاف، أو لنكن أكثر دقة إدراك الاستخدام السائل للعنف باعتباره أداة لرسم الحدود عندما تغيب الحدود"[22].

حقيقة لقد تجاوز باومان الطرح الكلاسيكي للعنف الذي يهدد الحياة، والذي تحدث عنه الفلاسفة وعلماء الاجتماع ليضع مفهوما جديدا للعنف، متأثرا أكثر بتحولات الحداثة والحياة السائلة التي فرضتها هذه الحداثة، وهنا نجده يؤكد على هذه الأفكار بقوله:"لا سبيل إلى تحقيق العدالة ولا ضمانها باعتبارها الشرط الأساسي للسلام الدائم، فالانفتاح الفاسد للمجتمعات بفعل العولمة السلبية هو نفسه السبب الرئيس للظلم ومن ثم فهو بطريقة غير مباشرة السبب الرئيس للصراع والعنف"[23]. ومع هذا التحول في العنف الذي أصبح يأخذ أشكالا وأنواعا في الحياة السائلة للمجتمعات، وربما تطور ليصبح إرهابا ازداد الخوف والشعور باللاأمن في مجتمعات الحداثة، فكيف ساهمت الحداثة بتحولاتها في ظهور الخوف السائل؟ وما علاقة الخوف بالمراقبة، ولماذا هذا الشعور الرهيب باللاأمن في زمن الحداثة.

6-في الخوف السائل: وفي نظرنا لا يوجد عالم أو فيلسوف حلل ظاهرة الخوف واللاأمن مثل زيجمونت باومان حيث حلل هذه الظاهرة، وبين كيف تغيرت من الصلابة إلى السيولة، نعم هناك من حلل هذه الظاهرة من الجانب النفسي كسيغموند فرويد(Sigmund Freud) (1856-1939)ومن الجانب الفلسفي جان بول سارتر (Jean-Paul Sartre)(1905-1980) ومن الجانب الاجتماعي إميل دوراكايم (David Émile Durkheim) (1858-1917) وغيرهم وهذا ما يسميه زيجمونت باومان بالتحليل الصلب لظاهرة الخوف واللاأمن، الذي يركز على الخوف الطبيعي الغريزي وحق الاجتماعي، أما الخوف اليوم الذي نشأ نتيجة تحولات الحداثة وظهور المجتمعات الحداثية وما بعد الحداثية، مجتمعات الاستهلاك، فهو خوف سائل، إنه خوف فرضته تيارات العولمة وانتقال المجتمعات إلى مجتمعات حداثية، وتطور الرأسمالية والليبرالية، وتمجيد النزعة الفردية، وتفكك العلاقات الاجتماعية، وانهيار القيم الأخلاقية "لا شك أن العولمة أصبحت الآن حتمية وفي مسار يستحيل عكسه، لقد تم الوصول إلى نقطة اللاعودة وتم تجاوزها، لا عودة الآن، إن علاقاتنا فيما بيننا واعتمادنا على بعض صار عالميا، كل ما يحدث في مكان يؤثر على حياة الناس وفرصهم في العيش في مكان آخر حسب الخطوات التي تتخذ في مكان ما، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار ردود الفعل في كل مكان آخر، لا حدود سيادية مهما كثرت أو كثر سكانها وإمكاناتها تستطيع بمفردها أن تحمي ظروفها المعيشية، أو أمن سكانها، اعتماد بعضنا على بعض يحدث على امتداد الكرة الأرضية"[24]، إنه زمن اللاأمن الذي فرضته الحداثة الغربية بمنطقها التداولي، فعن ماذا يبحث الإنسان الحداثي

العولمي؟ يتساءل زيجمونت باومان، هل على الوفرة والرفاهية؟ هل على السيادة والسيطرة التي جعلته يوما يعتقدأنه سيصبح إلها؟هل يسعى وراء المادة والاستهلاك بعيدا عن قيمه الروحية والأخلاقية، ماذا قدم له التطور؟ إن أضعف مخلوق يمكن أن يشعر الإنسان بالخوف، بل وبالرهاب وهو أعلى درجات الخوف، إن أدق جرثومة أو ميكروب يمكن أن يقضي على الإنسان ويشعره بالخوف الرهيب كما يحدث مع فيروس كرونا. لقد عرت هذه الأمراض الإنسان من كل أبعاده وقيمه، لقد كشفت عن حقيقته الإنسانية وضعفه أمام أضعف المخلوقات، كما بينت أن العصرنة والتباهي بالتطور والتقدم العلمي والطبي لم يصل إلى الحد الذي يشعر الإنسان بالأمان والقوة والسيطرة، لقد أيقظت هذه الأمراض والمشاكل الاجتماعية الجديدة الإنسان من سباته، كما دفعت الإنسان لأن يفكر أكثر في بشريته وجنسه، ويبتعد عن الأنانية والغطرسة، وكشفت عن الوجه القبيح للعولمة والامبريالية والليبرالية المتوحشة، وأعادت طرح أسئلة العلاقة بين الإنسان وذاته وبين الإنسان وغيره، والإنسان وأخلاقه، فيما سمي بالبيوإطيقا، وبين الإنسان وخالقه، وبين الإنسان وبيئته وعقله وعلمه....الخ.

إن الخوف واللاأمن جعلا الإنسان يعيد حساباته، وكما يقول باومان:"إن الأمان هو عنوان اللعبة في عالم غير آمن، فالأمان هو الغاية الرئيسية من اللعبة ومكافأتها الأسمى، إنه قيمة تقزم عمليا إن لم يكن نظريا، وتدفع كل القيم الأخرى بما فيها تلك القيم الأحب والأكثر بغضا لديهم، ولهذا السبب أفصحوا عن السبب الرئيس لرغبتهم بإبذائنا في عالم متزعزع كعالمنا"[25]، من هنا يصل زيجمونت باومان ليصف لنا بدقة الحياة السائلة في زمن الحداثة السائلة، التي تحول فيها الخوف من خوف صلب إلى خوف سائل، إنه أكثر خطرا على الفرد والمجتمع والقيم، إنه الدمار الذاتي لكل هؤلاء، إنه إحدى مخلفات الحداثة المتغولة التي ألتهمت كل ما يرتبط بالإنسان من قيم عليا، سواء أكانت اجتماعية أم دينية، لقد لهثت العولمة والحداثة إلى إنتاج وضع بشري متأزم ،وإنسان حديث يفتقد إلى القيم الجمالية والخير والحب والسلام، لقد أعلنت الحرب على الإنسان، بما أنتجته من مغريات ومعطيات، لقد تجاوزت إنتاج الأسلحة النووية الفتاكة، إلى إنتاج إنسان مدمر، وإلى إنتاج أسلحة دمار شامل لكل الشعوب والأمم، إنه السلاح البيولوجي الذي لا يميز بين البشر، ولا يمكن التحكم فيه، وهذا ما زاد من خوف الإنسان وشعوره باللاأمن، يقول باومان في ذلك "فما أن يحل الخوف بالعالم الإنساني، فإنه يكتسب قوته الذاتية الدافعة، ولا يتطلب منطق تطوره اهتماما يذكر، وقلما يحتاج لأي استثمار إضافي حتى ينمو وينتشر، بل لا يمكن إيقافه، فالخوف من الخطر ليس الطامة الكبرى، بل امتداده وتحوله، فالحياة الاجتماعية تتغير عندما يعيش الناس خلف الأسوار ويستأجرون الحراس ويقودون سيارات مصفحة ويحملون الأسلحة، ويحضرون دورات

تدريبية في فنون القتال، وتكمن المشكلة في أن هذه الاحتياطات تعيد تأكيد الشعور بالخلل، بل إنها تساعد على توليد هذا الشعور"[26]، ويزداد الخوف يوما بعد يوم، إنه شعور متزايد نتيجة لما يفرضه الواقع الاجتماعي المعيش، فلا يمكن التخلص من هذا الخوف السائل، بل إنه أصبح جزء من حياتنا اليومية، إنه يتبعنا في كل لحظة من لحظات حياتنا، في الشارع وفي البيت وفي محلات البيع، ومطاعم الوجبات السريعة، إننا نخاف أن نلمس شيء فيه جراثيم فتاكة وفيروسات قاتلة، إننا نخاف أن نأكل وجبات سريعة بها مواد مضافة تتسبب في السرطانات بكل أنواعها، أصبحنا نخاف أن نصافح أو نعانق، أصبحنا نخاف من الإشعاعات في الهواتف الذكية والتلفزيونات وأجهزة الكومبيوتر ومواقع التواصل الاجتماعي، أصبحنا نخاف من المواد المنظفة ومن الأغذية واللحوم المعدلة وراثيا، أصبحنا نخاف من المواد المعاد رسكلتها، أصبحنا نخاف حتى من الهواء الذي نتنفسه، إنه الخوف السائل بل الرهاب الذي فرضته العولمة والحداثة على الإنسان الذي أنتجها، باحثا عن السعادة والرفاه والأمن، وهكذا " تدفعنا المخاوف إلى القيام بفعل دفاعي، وعند القيام به فإنه يحول الخوف إلى وجود مباشر ملموس، فاستجاباتنا هي التي تعيد صياغة الهواجس المخيفة باعتبارها واقعا يوميا يجسد كلمة الخوف المجرد، فلقد استقر الخوف الآن بالداخل وهو يتسرب إلى أنشطتنا اليومية المعتادة، وقلما يحتاج إلى مثيرات أخرى من الخارج فالأفعال التي يولدها يوما بعد يوم مستمدة بكل الدافعية والطاقة التي يحتاجها لإعادة توليد نفسه، وربما يكون التوليد الذاتي لفخاخ الخوف والأفعال المنبعثة من الخوف هو أهم الآليات المتنافسة على الاقتراب من النموذج المثالي للآلة الخيالية التي لا تتوقف أبدا ما إن تبدأ حركتها"[27]، وهنا نجد زيجمونت باومان بعقلية عالم الاجتماع المتمرس والفيلسوف المفكر يحلل هذه الظاهرة وفقا لمعطيات الحداثة، ويقوم بتشريح هذا الواقع المخيف المرعب عندما يقول:"وهكذا ننشغل بتحديد "العلامات السبع للسرطان" و"الأعراض الخمس للاكتئاب" أو نهمك في طرد الروح الشريرة التي يمثلها كل من ضغط الدم المرتفع، وزيادة نسبة الكولسترول والتوتر والسمنة، إننا نبحث عن أهداف بديلة حتى نفرغ فيها فائض الخوف الذي لا يجد منافذ طبيعية.. فكل قفل إضافي نضعه على باب الدخول بسبب الشائعات المتوالية عن المجرمين وكل تعديل للنظام الغذائي..يجعل العالم أكثر إثارة للهلع، وقد يزيد الناس تحفزا للدفاع والاحتراس، وهذا يزيد للأسف من المقدرة التوليدية الذاتية للخوف"[28]، والأكثر من ذلك لا حظ باومان أن هذا الخوف واللاأمن اليوم أصبح يدر أموالا طائلة على الشركات العملاقة التي أبدعت في إنتاج كل ما يطلبه الإنسان لمحاربة خوفه، والأموال التي تستفيد منها تعيد بها إنتاج الخوف من جديد، حتى تستمر في البيع والأرباح، ولقد أطلق باومان على أموالها رأس مال الخوف، وهنا يقول:"فالخوف موجود وهو

يتسرب إلى الوجود الإنساني اليومي، بينما يتوغل الاقتصاد الحر في أساساته، وتتداعى الحصون الدفاعية للمجتمع المدني فالخوف موجود، ويبدو أن وفرته لا تنتهي..واقع الأمر أن استغلال رأس مال الخوف أمر ثابت تماما، بل هو تقليد يعود إلى السنوات الأولى للهجوم الليبرالي الجديد على الدولة الاجتماعية"[29].

كما يؤكد باومان أن الخوف هو السبب في انتشار ظاهرة العنف والإرهاب، سواء الداخلي أو الدولي ومنها الحروب، ولقد أكد أن بعض الحروب كان سببها الخوف من الإرهاب، كما حدث في العراق وأفغانستان، وبالمقابل يرى باومان أن المجتمعات والأمم لم تعد تتحكم في الحاضر، وهذا هو السبب الرئيس لخوفها من المستقبل، لقد أفلت منا الحاضر بما أحدثته العولمة من تسارع رهيب في نقل التكنولوجيا والمعلومات ورؤوس الأموال، مما جعل المستقبل غير واضح أمام البشرية، وهذا ما يولد خوف عام، وضبابية مفرطة لقد "ولدت المخاوف ذات الطابع الحديث في أثناء الجولة الأولى من تحرير السوق وسيرورة النزعة الفردية، في وقت انفكت أو تقطعت فيه روابط القرابة والجيرة، روابط كانت متينة تعتصم بحبل الجماعة والثقة، روابط كانت تبدو أبدية لكنها عاشت على أي حال منذ زمن بعيد، فكان النموذج الحديث الصلب لإدارة الخوف يميل إلى إحلال الروابط المصنوعة محل الروابط الطبيعية التي دمرت تماما، واشتملت هذه الروابط المصنوعة النقابات والاتحادات والكيانات الجمعية...كان أفول ذلك التضامن ينذر بنهاية النموذج الحديث الصلب لإدارة الخوف"[30].لقد افتقد الإنسان المعاصر لتلك الروابط التي تشعره بالأخوة والمحبة والتسامح، حيث كان لا يأبه للأمور الاحترازية في بيته ومجتمعه وحتى عمله، لكن تحولات الحداثة جعل الخوف ملازم للإنسان كضله، فافتقد للسعادة وللعلاقات الإنسانية، وتفككت الروابط وذابت القيم "إن المجتمع الحديث السائل هو أداة تحاول أن تهون من صعوبة الحياة مع الخوف، فإذا كانت الحداثة الصلبة قد اعتادت أن تغزو المخاوف واحدا تلو الآخر، فإن الحداثة السائلة تكتشف الآن أن الصراع ضد المخاوف هو مهمة مدى الحياة"[31].ومنه كيف لنا ان نواجه تحولات الحداثة، كيف يمكن زرع بذرة الأمل، كيف يمكن اصلاح الوضع الإنساني المأزوم الذي أوجدته الحداثة كيف يمكن ان نخرج من زمن الحداثة الى ما بعد الحداثة؟يعتقد باومان انه على الثقافة ان تعيد هي الأخرى التفكير والتأسيس والبناء، علها ان تصبح اكثر سيولة لمراجعة كل ما انتجته الحداثة، فما هو دور الثقافة في تحولات الحداثة؟

7-في الثقافة السائلة: إن للثقافة دور أساسي في الرقي بالفكر والحضارة، بل وفي مسار الإنسانية، إنها ضمير الحضارة ووسيلة التغيير، ولا يمكن أن تقوم بدورها، إلا إذا تجاوزت المفهوم الصلب، عليها أن تتعامل مع كل المعطيات الجديدة للحداثة، عليها أن تعيد النظر في مبادئها وأسسها، من هنا كان لا بد أن تقوم بدورها في المجتمع والحضارة، كما فعلت بالأمس عندما كانت طريقا لفعل التنوير والدخول إلى زمن الحداثة، يقول باومان عن الثقافة: "وكان الغرض من الثقافة وفق مفهومها الأصلي أن تكون عاملا للتغيير، وليس عاملا للحفاظ على الوضع القائم، فكان المطلوب منها أن تكون وسيلة لقيادة التطور الاجتماعي نحو وضع إنساني عالمي، ولم يكن الغرض الأصلي لمفهوم الثقافة توظيفها كدفتر يختص بتسجيل توصيفات الموقف السائد ولا سرد قائمة بالأشياء التي يحتويها، ولا جمع قوانينه وتصنيفها، بل تحديد هدف الجهود المستقبلية ووجهتها"[32]

يجب أن تعيد الثقافة في زمن الحداثة النظر في ماهيتها ومهامها ووظيفتها، فلم تعد تقتصر على التنوير ونقل العلم فقط، وتحسين سلوك وعادات الناس وأعرافهم، بل لا بد من إعادة تشكيلها من منظور جديد، إنه منظور الحداثة السائلة"ففي الأزمنة الحديثة السائلة تتشكل الثقافة... بما يلائم الحرية الفردية للاختيار والمسؤولية الفردية عن ذلك الاختيار، وتتمثل وظيفتها في الإبقاء الدائم على هذا الاختيار ضرورة حياة وواجبا محتوما، مع الإبقاء على مسؤولية الاختيار وعواقبها، حيث وضعتها الأزمنة الحديثة السائلة"[33].

إن فعل التنوير والتحديث هو الفعل الذي انيط به للثقافة في زمن ما قبل الحداثة، لكن اليوم لم تعد تقوم بهذا الفعل، بل لقد تغيرت مهمتها، إنها اليوم تتماشى والحداثة السائلة، لتصبح هي بدورها ثقافة سائلة وعلى حد قول باومان "ليست لثقافة الحداثة السائلة من شعب تنيره وترتقي به، ولكن لها زبائن تغريهم فالإغراء على العكس من التنوير، والارتقاء بالنفس ليس مهمة واحدة منفصلة يقوم بها المرء مرة وللأبد بل هو نشاط مفتوح لا نهاية له، فليست وظيفة الثقافة هي إشباع الحاجات القائمة، بل خلق حاجات جديدة بينما تحافظ على الحاجات المترسخة بالفعل أو غير المتحققة على الدوام"[34]، وكذلك على المثقفين أن يعيدوا تشكيل ثقافتهم ومفاهيمهم وفقا لتحولات الحداثة، حتى يناقشوا وينشغلوا بكل ما تطرحه الحداثة من متغيرات ومن مفاهيم سائلة، لم تعد الرتابة والنمذجة والنمطية قادرة على تفسيرها وتفكيكها، عليهم ان ينتقلوا من فعل التعليم والتنوير وحفظ قيم المواطنة، إلى فعل التفكيك والتحليل والتبرير وإيجاد إنسان جديد، إنسان حداثي يستطيع أن يتأقلم مع كل المتغيرات في حياته، يحمل ثقافة سائلة قابلة للتشكل في أي لحظة من لحظات الزمن السائل، بعيدا عن الصلابة والتراتبية في المفاهيم والقيم والأخلاق وعليه فالثقافة السائلة بالمفهوم الجديد آمنت بالقدرة على التغيير، وإذابة

المفاهيم القديمة التي كانت في غالب الأحيان عائقا أمام التطور، كما آمنت بالعالمية، وليس المحلية والخصوصية، وأعلنت أن التحديث طريق للتقدم، فلا بد من إعادة تحديث كل المفاهيم والقيم.

الخاتمة:

والنتيجة التي يصل إليها باومان من تحليله السوسيولوجي لظواهر الحداثة السائلة، أن زمن الحداثة الغربية بكل ما تحمله من أفكار ومشاريع حاولت الخروج بالإنسان من الخضوع إلى السيادة والسيطرة حيث استطاع أن يسيطر على الطبيعة، وأن يتحرر من كثير من الحتميات الذاتية والخارجية، وأن يخطو خطوات عملاقة في سلم الحضارة، مكتشفا بذلك قدراته الخارقة، وموظفا أياها لصالحه، إلا أن ذلك أدى بالمقابل إلى تراجع الإنسان والإنسانية في سلم القيم والأخلاق، حيث طغت المادة والرأسمال الفاحش وأحدث هذا هوة بين من يملكون ومن لا يملكون، فظهر الصراع والحروب، وزاد تمرد الإنسان وطغيانه وأراد أن يصبح متعاليا متجبرا، مؤمن بالعلم والعقل، وهذا ما خلق بالمقابل انهيار منظومة القيم، وتراجع الإنسانية، وفقدان الشعور بالذات والآخرين، وانهيار مقومات الحضارة، فأصبح هناك عنف ممنهج وإرهاب متوحش، وحياة سائلة تفتقد للقيم الجمالية والإحساس بالوجود، وثقافة مائعة تتحكم فيها قيم الاستهلاك، وأصبح الزمن سائلا بما يعرفه من تسارع وتغيرات، ولهذا أصبح الخوف واللاأمن هما الصفتان السائدتان في مجتمع الحداثة.

_وعليه يمكن أن نقول أن الخوف السائل ارتبط بالحداثة وأنه ملازم لنا في حياتنا اليومية، وهو يزداد يوما بعد يوم، نظرا لزيادة طرق التهديد للإنسان والمجتمعات سواء أكانت فردية أم جماعية، وسواء من الطبيعة أم من الإنسان ذاته وما ينتجه يوميا، خاصة وأن إنسان الحداثة والعولمة لم يعد يفكر إلا بلغة الأرقام والأرباح والأسهم، لقد تجاوز الإنسان اليوم التفكير في القيم والأخلاق والإنسانية، بقدر ما يفكر في الرفاه والتقدم والمتع، حتى ولو أدى ذلك إلى زوال الإنسانية، لقد أصبح إنسان الحداثة مجرد رقم في أسهم المضاربين الرأسماليين الجشعين، وأصبح العلم تابعا للسلطة والمال، ولذا يرى باومان أن أدنى تحدي للبشرية يضعها على المحك، كتحدي فيروس كرونا اليوم، وعليه لا بد من مراجعة كل القيم التي فرضتها العولمة والحداثة وبناء ثقافة سائلة جديدة، والبحث عن مستقبل أفضل للبشرية التي تسير في اتجاه مجهول.

_ إن الخوف لا يولد إلا الخوف والعنف والإرهاب، انه يحد من العلاقات ويقضي على التعاملات الإنسانية، انه يزداد يوما بعد يوم، مما يؤدي إلى الشعور باللاأمن، إننا نموت في اليوم ألف مرة كما قال باومان، إننا نبتعد عن إنسانيتنا وقيمنا وأخلاقنا وديننا، إننا نحارب من أجل حياة أفضل، لكن علينا بالمقابل أن نراجع كل معطيات الحداثة، وأن نخضعها للإنسان ونجعلها تابعة لا متبوعة، لقد حققت الحداثة قفزة نحو الأمام عندما أخرجت الإنسان من قدر أعمى كما عبر عن ذلك باومان، لكن لتقذف به في خوف أكبر إنه الخوف المرتبط بالألم عند الإنسان ذلك أن الإنسان يتألم وأكبر ألم فيه هو أنه كائن عاقل واع، فخوف الحيوان غريزي، أما خوف الإنسان فواع صادر عن شعور وقلق، إن إنسان الحداثة أصبح أكثر احتراسا من غيره، لقد أصبح ينظر إلى العالم الخارجي على أنه خطير وفيه تبث أروع المخاوف، مما قاده إلى الانزواء والعزلة، وهذا بدوره ولد لديه مخاوف أكبر وأمراض وعقد، إنه بين المطرقة والسندان.

_ فلا بد من مراجعات تتم على مستوى الوعي بالحداثة ومعطياتها والعولمة وطبيعتها، علينا أن نسعى للتحرر الإيجابي الذي يقود الإنسان إلى الارتقاء بإنسانيته لا أن يعود القهقرى، فالحضارة ليست ما ننتجه من وسائل وأشياء، بل ما نزرعه من قيم وأخلاق، إن التطور الذي يجب أن يكون هو الذي يوازي بين الإنسان وذاته ومجتمعه وأخلاقه وبيئته، يحترم الانسان في كل ابعاده، ينطلق من معطيات الماضي ليؤسس للحاضر بنظرة استشرافية إلى المستقبل، يحفظ فيه الإنسان وجوده وحق الأجيال القادمة، متخلصا من غرائزه التدميرية وسلوكه العنيف، وأنانيته المفرطة، مراجعا في نفس الوقت سلم القيم التي تنبني علها حضارته وثقافته.

الهوامش:

(*)زيجمونت باومان Zygmunt Bauman فيلسوف وعالم اجتماع بولندي، ولد في 19 نوفمبر 1925 في بوزنان ببولندا من أبوين بولنديين يهوديين، انتقل إلى الإتحاد السوفياتي عند بداية الحرب العالمية الثانية وعمره أربعة عشرة عاما، وعندما بلغ الثامنة عشرة عاما حارب في صفوف الفرقة البولندية في الجيش الأحمر ضد جيش هتلر، وبعد عودته إلى بولندا بعد الحرب، عمل باومان ضابطا سياسيا في الجيش البولندي خلال أواخر الأربعينيات وأواخر الخمسينيات، وفي عام 1948 تزوج جانينا لوينسون (jannina lewinson) (سكوت جون، ، خمسون عالما اجتماعيا أساسيا المنظرون المعاصرون، ترجمة: محمود محمد حلمي مراجعة جبور سمعان، ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، (ط 1) 2009، ص ص 85 – 86)، وقد اختبر زيجمونت باومان رعب الحرب، وعاش تجربة المنفى المؤلمة، هذه التجارب جعلته نصيرا للمستضعفين وناقدا لاذعا للأوضاع الراهنة، اشتغل باومان في المخابرات العسكرية البولندية كمدرس في العلوم السياسية، وخلال تلك الفترة (1939- 1953)، درس السوسيولوجيا في أكاديمية وارسو في بولندا(العلوي رشيد، يناير 2017، زيجمونت باومان من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة، تم استرجاعها في تاريخ 2020/04/04 من الموقع الالكتروني (https://aawsat.com/home/article/828101) على يد كبار السوسيولوجيين البولنديين أمثال ستينسلو أوسوسكي وجوليان هوتشفيلد، غير أنه سيغادر قسم السوسيولوجيا نحو قسم الفلسفة، بسبب حظر علم الاجتماع في بولندا بحجة أنه علم اجتماع برجوازي، وفي عام 1954 عمل محاضرا في جامعة وارسو، ثم أصبح أستاذا بروفيسورا في عام 1964 حيث استقر فيها إلى عام 1968، أين طرد رفقة عائلته في نفس السنة بعد شن الحزب الشيوعي حملة اتهامات بمعاداة السامية، وبذلك توجه إلى إسرائيل أين اشتغل كأستاذ محاضر في عدة جامعات بها حتى عام 1971 وبعدها غادرها أول ما جاءه عرضا للتدريس بجامعة ليدز ببريطانيا، لأن باومان أيقن حقيقة كونه ضحية دولة قومية عضوية (وهي بولندا) وبالتالي لم يشأ أن يقترف جرم القوميين في دولة قومية عضوية عنصرية (وهي إسرائيل)، وهذا ما صرحت وأفصحت عنه زوجته جانينا لوينسون » (Jannina Leuinson (1926-2009 كانت إسرائيل تحكمها العصبية القومية، وها نحن قد فررنا للتو من القومية "البولندية" ولذا لم نرض أن نتحول من ضحايا دولة قومية إلى من يقترف الجرم ذاته (بحق الفلسطينيين)، في دولة قومية أخرى» ولم يتردد باومان في الرحيل إلى بريطانيا فور تلقيه عرضا للتدريس بجامعة ليدز، وهناك تشكلت معالم مشروعه النقدي للحداثة الغربية ونزعتها القومية العنصرية(باومان زيجمونت، الحداثة والهولوكوست، ترجمة: حجاج أبو جبر، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، (ط1)، 2014، ص 28)، كما شغل أستاذا منذ 1971 في قسم علم الاجتماع، وأصبح فيما بعد رئيسا للقسم، ومنذ ذلك الوقت كانت كتب باومان تنشر باللغة الإنجليزية على وجه الحصر، عُدَّ منذ العقد التاسع من القرن الماضي، أحد أبرز أوجه حركة مناهضة العولمة النيوليبيرالية(باومان زيجمونت، الحداثة والهولوكوست، ترجمة: حجاج أبو جبر، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة، (ط1)، 2014، ص 28) بعد وفاة زوجته جانينا عام 2009 أعاد الزواج من الباحثة في علم الاجتماع "الكسندر حاسينكا" وعاشت معه وبناته الثلاثة وأحفاده حق وفاته المنية في 09 يناير 2017 بمدينة ليدز عن عمر يناهز 91 سنة.

1 -باومان زيجمونت، الأزمنة السائلة، العيش في زمن اللايقين، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف، ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، (ط1)، 2017، ص34.

2 -باومان زيجمونت، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، ترجمة: سعد البازعي وبثينة الابراهيم، دار كلمة الإمارات، (د ط). 2016، ص 45.

3 -المصدر نفسه، ص 46.

4 -المصدر نفسه، ص 106.

5 -باومان زيجمونت، الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، (ط1) 2016، ص 26.

6 -المصدر نفسه، ص 27.

7 -المصدر نفسه، ص 28.

8 -المصدر نفسه، ص 52.

9 -باومان زيجمونت، الثقافة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، (ط 1)، 2018 ص 19.

10 -المصدر نفسه، ص 19.

11 -المصدر نفسه، ص 20.

12 - باومان زيجمونت، الحياة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، (د ط) 2016، ص75.

13 - المصدر نفسه، صص21-22.

14 -باومان زيجمونت، ، الخوف السائل، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، (د ط) 2017، ص 31.

15 -باومان زيجمونت، الحرية، ترجمة: فريال حسن خليفة، مراجعة محمد سيد حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، (د ط)، (د س)، ص16.

16 -المصدر نفسه، ص55.

17 -المصدر نفسه، ص ص56-57.

18 -المصدر نفسه،ص80.

19 -المصدر نفسه، ص59-60.

20 -باومان زيجمونت، الحداثة السائلة، مصدر سابق، ص 269.

21 -المصدر نفسه، ص 270.

22 -المصدر نفسه، ص 271.

23 -المصدر نفسه، ص 136.

24 -باومان زيجمونت، الأخلاق في عصر الحداثة السائلة، مصدر سابق، ص46.

25 -المصدر نفسه،ص ص319-320.

26 -باومان زيجمونت، الأزمنة السائلة، مصدر سابق، ص ص32-33.

27 -المصدر نفسه، ص33.

28 -المصدر نفسه، ص35.

29 -المصدر نفسه، ص40.

30 -المصدر نفسه، ص86.

31 -باومان زيجمونت، وديفيد ليون، المراقبة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر بيروت، (ط 1)،2017، ص107.

32 -باومان زيجمونت، الثقافة السائلة، مصدر سابق، ص 15.

33 -المصدر نفسه، ص 20.

34 -المصدر نفسه، ص 23.